الفصل الرابع

غـــيرة

أقام العميد كامل احتفالاً بمناسبة تخرج حمزة من كلية الشرطة، وحصوله على النجمة الأولى، ووصوله إلى رتبة ملازم، ووقف حمزة متباهياً مزهواً ببدلته الشرطية بين والده وعدد من زملائه الضباط، والمهندس توفيق، وكانت نظراته معلقة على ديما التي كانت تقف مع شقيقته جومانة التي كانت ذات جمال خلاب مثير بذلك الفستان الأرجواني عاري الصدر والذراعين، وشعرها المنسدل على كاتفيها وتلك العينان ذاتا اللون المائي. أما ديما فكانت تبدو كالأميرة فائقة الحسن ترتدي فستان وردي طويل يظهر رشاقة قوامها، ويبرز معالم جسدها، وشعرها الأصفر الحريري الطويل المسرح على هيئة ذيل الحصان، وتنسدل بعض خصلاته على جبهتها، وتمسك في يدها حقيبة يد صغيرة ذهبية اللون، وسار حمزة متجهاً إليهما وعلى شفتيه ابتسامة واسعة بينما امتعضت ديما، ووصل إليهما حمزة قائلاً: الأميرة ديما تكرمت وحضرت حفلتي. أنا حقاً سعيد الحظ.

تصنعت ديما الابتسامة وقالت: عمي كامل دعانا ولا أستطيع أن أرفض دعوته ثم إني كنت أشتاق لرؤية جومي.

قال حمزة: كنت أظنك جئت لتهنئتي.

قالت ديما: طبعاً أهنئك، وأرجو أن تكون عند تلك المسئولية.

قال حمزة محدثاً شقيقته جومانة: اذهبي يا جومانة إلى أمي يبدو إنها تريدك.

فهمت جومانة إنه يريد الإنفراد بديما فقالت: حسناً. سأذهب إلى أمي.

انصرفت جومانة فقال حمزة: ما رأيك في بدلة الضباط هذه ألا أبدو أنيقاً بها؟

قالت ديما: بالطبع بدلة جميلة أحبها، وأحترمها لكن المهم من سيرتديها كيف سيتعامل بها مع الناس.

قال حمزة: أتقصدين الناس عموماً أم المجرمين؟

قالت ديما: أقصد الناس عموماً. أرجو ألا تتعامل معهم جميعاً وكأنهم مجرمين فتسيء إليهم بإهانة كرامتهم.

قال حمزة مبتسماً: اطمئني لن أكون هكذا أبداً. والآن أخبريني هل مازلت تشعرين إننا صغار؟

قالت ديما: ماذا تقصد؟

قال حمزة: لقد صارحتك من قبل إني احبك فقلت إننا مازلنا صغاراً، والآن أنا صرت ضابطاً، وأنت صرت طالبة جامعية فما رأيك هل أعلن خطوبتنا الآن؟

صمتت ديما للحظات ثم قالت: حمزة أنا لا أفكر في هذا الموضوع في الوقت الحالي مطلقاً. إنني سوف أبدأ أولى خطواتي الجامعية بعد أسبوعين من الآن، وهناك هدف أمامي أريد تحقيقه فأرجوك لا تحدثني في هذا الموضوع مرة أخرى، واجعلنا نكون أخوة وأصدقاء أفضل.

تجهم وجه حمزة لكنه لاحظ ابتسامة واسعة رسمت فجأة على وجه ديما فنظر خلفه فوجد الدكتورة نادية دلفت إلى الشقة للتو وبصحبتها أدهم فعاود النظر إلى ديما وقال: يبدو إنك سعدت كثيراً لحضور هذا الولد المسمى أدهم؟

ارتبكت ديما لكنها قالت: بل سعدت بقدوم طنط نادية. أنت لا تعلم كيف أقدر هذه المرأة وأحبها.

لم يبدو على حمزة أنه اقتنع بذلك لكنه قال: بالفعل هي تستحق.

قالت ديما: استأذنك لأذهب لمصافحتها.

قال حمزة: سأذهب معك.

صار أدهم ممسكاً بهدية نحو العميد كامل الذي استقبله بحماس وحفاوة شديدة مما أدهش حمزة ثم صار العميد كامل وهو ممسكاً بيد أدهم، وذهب إلى نادية، وقام بمصافحتها، ثم جلست نادية بجوار زوجة العميد كامل السيدة ليلى.

بعد أن صافحت ديما الدكتورة نادية وقفت تتحدث مع أدهم وآتى إليهما حمزة فأعطاه أدهم الهدية قائلاً: هدية متواضعة يا حمزة، ومبارك عليك النجمة الأولى.

قال حمزة: مؤكد إنها متواضعة ألم تشتريها من مصروف اليد الذي تعطيه لك والدتك.

بدا الغضب على وجه أدهم، وديما التي قالت: ومن الذي أنفق المال على هذا الحفل أهو أنت أم والدك؟

نظر إليها حمزة ولم يعرف ماذا يقول، وهنا أتت إليهم جومانة، وأمسكت بذراع أدهم وقالت: أدهم كيف حالك، وما أخبارك. منذ عيد ميلادك ونحن لم نلتقي.

نظرت إليها ديما، وإلى يدها التي تمسك ذراع أدهم فتملكتها الدهشة، وبدأت تتسرب إلى قلبها الغيرة، ونظر أدهم نحو ديما وهو يحدث جومانة قائلاً: أنا بخير. مبارك لك النجاح في الثانوية العامة.

قالت جومانة بحماس: لقد قررت الدراسة في كلية الإعلام حتى أكون معك.

لم يجد أدهم ما يقوله فاكتفى بابتسامة بينما قالت ديما: استأذنكم سأذهب للجلوس.

سارت ديما، وسار جوارها حمزة بينما شعر أدهم بغضب ديما فامتعض، وشرد ذهنه لكن أخرجته جومانة من ذلك الشرود قائلة: أخبرني ما رأيك بفستاني هل أبدو فيه جميلة؟

قال أدهم وهو ينظر إلى ديما التي جلست تنظر إليهما، والغضب مرسوم بدقة على وجهها: أنيق جداً فستانك جومانة.

قالت جومانة: وأخبرني هل أبدو به جميلة. أمي قالت إني رائعة الجمال فهل أنا بالفعل كذلك؟

قال أدهم: هو بالفعل يظهر جمالك.

وسقطت عينيه دون قصد على صدرها فقالت ضاحكة: نظراتك الخبيثة واضحة أيها الشقي.

قال أدهم مرتبكاً: لا. لم أقصد ذلك صدقيني. أرجوك لا تفهميني خطأ.

ظلت جومانة على ضحكها وقالت: أنا أعلم ذلك لا تقلق.

****

انتهى الحفل، ووقف حمزة مع شقيقته جومانة قائلاً: شقيقتي العزيزة أسلوبك مع هذا الولد لا يعجبني.

بدت الدهشة على وجه جومانة وقالت: لا أفهم ماذا تقصد. تكلم بوضوح.

قال حمزة: حسناً يا شقيقتي العزيزة. واضح جداً من طريقة تعاملك مع أدهم هذا إنك تميلين إليه.

بدا الارتباك على جومانة وقالت: لماذا تقول هذا!؟ أنا أعامله معاملة طبيعية كما أعامل أسامة وهاني أبناء عمي توفيق.

ضحك حمزة وقال: معاملة طبيعية. يا شقيقتي الحبيبة يبدو إنك تفقدين القدرة على تصرفاتك أمام هذا الولد لدرجة جعلتك لا تشعرين ماذا تفعلين.

بدا الغضب على وجه جومانة وقالت: أنا لا أسمح لك أن تقول عني هذا الكلام. ثم أنت لماذا تتحدث عنه باحتقار هكذا؟

قال حمزة: صراحة أنا لا أهضم هذا الولد، ولا أحبه خاصة بعد أن شعرت إنه ربما تكون هناك علاقة بينه وبين ديما.

قطبت جومانة حاجبيها وقالت: غير معقول. وكيف عرفت ذلك؟

ضحك حمزة وقال: وضحت غيرتك يا شقيقتي لكن لا يهم. هو مجرد شعور ليس أكثر، ولكن لو اتضح أن بينهما علاقة بالفعل فسأنسفه نسفاً.

****

ترقد ديما على فراشها وقد بدا الغضب والانفعال عليها وهي تتحدث مع أدهم عبر الهاتف..

كيف تسمح لها أن تمسك بذراعك وتحدثك بتلك الطريقة؟ لقد شعرت إنها على وشك تقبيلك.

قال أدهم: وماذا كنت أفعل يا ديما. لقد كان شقيقها واقفاً معنا ولم يهتم بالأمر. أكان على أن أدفع ذراعها، وأقول لها لا تتحدثي معي هكذا؟

قالت ديما: يبدو إنك تستخف بما فعلته، وتراه هيناً.

قال أدهم: يا حبيبتي يجب أن تعلمي أن عيني وقلبي لا يرون إلاك، ولا يعشقون سواك فلا داع لهذه الغيرة، وهذا الغضب.

هدأت ديما وقالت: لو كنت تحبني مثلما أحبك ما كنت فعلت ما يغضبني.

قال أدهم: أنا لا أعرف ماذا أقول لأرضيك يا حبيبتي سوى أن عمري فداء للحظة حزن تعيشينها بسببي، ولا عرفت طعم السعادة أبداً مادمت غاضبة مني.

قالت ديما: أرجوك يا أدهم كن لي أنا فقط.

قال أدهم: تأكدي يا حبيبتي إنك تملكيني وقلبي، وأن مفتاح سعادتي بيدك أنت فقط. حتى أنا لا أملكه.

قالت ديما مبتسمة: حسناً. سأسامحك هذه المرة. هذه المرة فقط.

****

وبدأ الموسم الدراسي، وخرجت ديما من كليتها الفنون الجميلة برفقة عدد من زميلاتها، ووجدت أدهم يقف في انتظارها فتركت زميلاتها وذهبت إليه.

_ كيف كان يومك الأول حبيبتي؟

قالت ديما: كان جيداً، وتعرفت على عدد من الزميلات. أخبرني أنت هل التقيت بجومانة اليوم في الجامعة؟ وقل الصدق لا تكذب.

قال أدهم: آه منك حبيبتي ومن غيرتك. نعم يا ديما التقيت بها، ولكنني لم أطيل معها الحديث حتى آتي إليك.

قالت ديما: وفيم تحدثتما؟

قال أدهم بغضب: أتريدين تقريراً يا ديما؟

نظرت إليه بقسوة فقال مستطردً: حسناً. لقد كانت تريدني أن أشرح لها شيئاً لا تفهمه.

قالت ديما بسخرية: تظنك ذكياً. وهل شرحت لها أيها المعلم الخبير؟

نظر إليها ممتعضاً وقال: لا لم أشرح لها شيئاً فلم يسعفني الوقت.

قالت ديما: ولماذا ألم يكن شيء بسيطاً؟

قال أدهم بتردد: هي قالت إنه سيحتاج لوقت طويل، فاقترحت أن نجلس في مكان هادئ لتتمكن من فهم ما سأشرحه لها.

جحظت عينيها، وقالت دهشة: هل ما سمعته الآن حقيقي أم تهيُئات!؟

لم يفهم أدهم ما تقصده فظل صامتاً بينما استطردت هي منفعلة: هل ستلتقيان خارج الجامعة؟

قال أدهم ببراءة: إنها هي التي تريد ذلك.

قالت ديما غاضبة: هي التي تريد ذلك!؟ هيا اذهب إليها. هيا.

أخذت ديما تدفعه دفعات خفيفة فقال أدهم: ديما حبيبتي لا تتصرفي كالأطفال.

ومرت فتاتان من جوارهما قالت إحداهما لأدهم بصوت مسموع: وسيم جداً.

فقال أدهم: أشكرك.

نظرت إليه ديما بدهشة شديدة، ووضعت يداها على خاصرتيها وقالت: ما هذا الذي حدث؟

قال أدهم ببراءة: أنا لم أفعل شيئاً.

قالت ديما وهي تسير مبتعدة عنه: أرجوك لا تأتي خلفي من فضلك.

انصرفت ديما بينما ظل أدهم واقفاً، وزفر نفساً حاراً، وضرب ساقيه بيديه وقال:

_ اللعنة على غيرتك هذه.

****

داخل غرفته جلس أدهم على مقعده الهزاز، وأمسك هاتفه، وقام بالإتصال بديما عدة مرات، لكنها في الأخير ردت عليه قائلة بغضب: نعم. ماذا تريد؟

قال أدهم: أمازلت غاضبة؟ ألا يكفي إنك سرت بمفردك وتركتني.

قالت ديما: إن أردت الصلح معي هناك شرط.

ابتسم أدهم وقال: أمرك مطاع أميرتي. سأنفذ كل شروطك، وأوامرك.

قالت ديما: هل أنت واثق من ذلك؟

قال أدهم: بالطبع حبيبتي حتى لو أردت أن أقفز في النيل سأقفز. فهيا أخبريني ما هو شرطك.

في غرفة حمزة الذي جلس على حافة فراشه دلفت إليه شقيقته جومانة قائلة: ما الشيء الذي كنت تريدني فيه؟

قال حمزة: أريدك أن تذهبي وتشتري هدية لديما لأهديها لها بمناسبة بدء حياتها الجامعية.

قالت جومانة: وكيف ستهديها لها؟

قال حمزة: سأذهب إلى كليتها، وأنتظرها حتى تخرج ثم أهديها لها. أنا أعلم أن الفتيات تحب الهدايا، وربما تلين هديتي قلبها. أنت فقط تحدثيها لتعرفي منها موعد انتهاء يومها الدراسي.

قالت جومانة مبتسمة: أنت تريد مني طلبان إذن. فما هو المقابل؟

قال حمزة: أتبتزين ضابط شرطة؟

ضحكت جومانة وقالت: هنا أنت أخي ويحق لي أن أستغل الظروف. أنظر يا أخي الهدية التي سأحضرها لديما سأحضر لي مثلها. ماذا قلت؟

قال حمزة: وماذا سأقول. أفعلي ما تشائين يا شقيقتي الحبيبة.

صمتت ديما لثواني ثم قالت: أريدك أن تقص شعرك بأكمله، وتصير أصلع الرأس تماماً.

صاح أدهم قائلاً: ماذا؟ ما هذا الذي تقولينه يا ديما؟ هذا غير ممكن أبداً.

قالت ديما: هذا شرطي إن كنت تريد مصالحتي. هيا اثبت لي إنك تحبني كما تدّعي.

قال أدهم: ولكن لماذا هذا الشرط بالذات؟

قالت ديما: شعرك هذا الذي تتباهى به أمام الفتيات يجب أن نتخلص منه.

قال أدهم: يا حبيبتي أنا لا أتباهى ولا أفعل شيئاً صدقيني. ثم إنك لن تحبي رؤيتي وأنا في هذه الصورة.

قالت ديما: أنا أحب أدهم الشخص بروحه وذاته، وليس لجمال هيئته.

قال أدهم: حسناً. ما رأيك أن ارتدي غطاء رأس؟ وصدقيني لن أزيله من رأسي أبداً.

قالت ديما: انتهى النقاش يا أدهم. ومن فضلك لا تريني نفسك إلا وأنت أصلع الرأس.

قال أدهم منفعلاً: هذه ليست طريقة للنقاش أبداً.

أغلقت ديما الهاتف فاستطرد أدهم قائلاً: يا لحظي التعس. أحببت فتاة مجنونة.

****

عادت نادية من الصيدلية، ودلفت إلى شقتها، وبينما تهم أن تغلق باب الشقة فوجئت بالرجل الغريب يدفعه من الخارج، ووقف أمام نادية التي أخذت تنظر إليه بغضب شديد فقال لها: أريد أن أتحدث معك قليلاً يا نادية.

قالت بعصبية: ماذا تريد؟

ابتسم الرجل وقال: أهنا ونحن نقف أمام الباب؟ ماذا سيقول عنك جيرانك لو رأونا هكذا؟

أفسحت له نادية طريقاً لدخوله الشقة قائلة: أدخل، ولكن حاول أن تختصر كلامك.

ابتسم الرجل وقال وهو يسير نحو أريكة غرفة الإستقبال: أهكذا تعاملين ضيوفك؟

مدد الرجل جسده بأكمله على الأريكة حتى قدمه ذات الحذاء فنظرت إليه نادية بغضب شديد وقالت: قل ما تريده بسرعة.

هنا آتى أدهم إليهما فاعتدل الرجل في مجلسه، ونظر أدهم إليه دهشاً وقال: لماذا جاء هذا الرجل إلى هنا مرة ثانية يا أمي ألم تطرديه من قبل؟

نهض الرجل من مجلسه، وسار نحو أدهم قائلاً: لقد شعرت بالخطأ الذي وقعت فيه المرة الماضية، وجئت لأعتذر لك ولوالدتك.

قال أدهم بعصبية: أنا فقط أريد أن أعرف ما الذي كنت تقصده بقولك إنك تفاجأت أن والدتي أنجبتني بعد مضي ستة أشهر فقط، وأيضاً أريد أن أعرف ما هي الأمانة التي تركتها لوالدتي لما يقرب من عشرين عاماً.

صمت أدهم بينما تبادل الرجل ونادية نظرات التهديد والتحدي ثم ابتسم الرجل وقال: لقد اكتشفت إني كنت مخطئاً في حساباتي، وأدركت أن والدتك أنجبتك في الشهر السابع. أما بخصوص الأمانة فهي كانت مبلغاً من المال أقرضته لوالديك حتى يقوما بتجهيز الصيدلية.

قال أدهم: وأين كنت طوال هذه السنوات؟

قال الرجل: لقد سافرت إلى الولايات المتحدة. عملت وتزوجت، وحصلت على الجنسية الأمريكية، وبقيت هناك.

قال أدهم: وكم هو ذلك المبلغ؟

قالت نادية: أنا لا أتذكر أننا أخذنا منه شيئاً. أنه رجل نصاب. هيا انصرف من هنا.

ابتسم الرجل وقال في خبث: أنت تعلمين جيداً إنني لست نصاباً، وإنك مدينة لي. أنظريا أدهم هل يرضيك أن تحرمني والدتك من حق لي عندها؟

امتعضت نادية، ونظرت إلى الرجل بقسوة.

وقال أدهم بحدة: لو كان كلامك صحيحاً فمؤكد أن أمي ستعطيك حقك، ولكن أنا واثق أن أمي لا تكذب أبداً، وإنك تريد أن تحتال علينا.

قال الرجل وهو ينظر إلى نادية بخبث: أحقاً أريد أن أحتال عليكما يا نادية؟

ثم نظر الرجل إلى أدهم واستطرد قائلاً: هل تعلم يا أدهم مقدار حجم ثروتي التي تمكنت من تكوينها في غربتي؟

أخرج الرجل دفتراً ورقياً صغيراً ألقى به إلى أدهم مستطردً: هذا دفتر حسابي الأمريكي يمكنك أن تطلع على رصيدي داخل البنك.

أمسك أدهم دفتر الحساب وأخذ يقرأ به ثم بدت دهشة شديدة على وجهه وقال: أنت ملياردير!

ابتسم الرجل وقال: هل يوجد شخص في الكون يملك كل هذه الأموال ويريد الاحتيال من أجل عشرون ألف جنيه؟ أمك مدينة لي يا أدهم.

صمت أدهم بينما قالت نادية منفعلة: لست مدينة لك بشيء، وكل ما في رأسك وهم.

ابتسم الرجل وقال: حسناً يا نادية إن كنت مصرة على ذلك فأنا لا أريد تلك النقود، ويكفيني إني تعرفت على أدهم، وأرجو أن يتخذني صديقاً له.

قالت نادية بسخرية: أشكرك على كرمك هذا. والآن بمكنك الإنصراف هيا تفضل.

أخذ الرجل ينظر إلى عيني أدهم وهو يقول: حسناً سأنصرف، وأرجو أن تتقبل صداقتي يا أدهم.

ظل أدهم صامتاً بينما عيناه تتلاقى مع عيني الرجل الذي أسرع الخطى في النهاية حتى غادر الشقة.

قالت نادية متأففة: رجل مجنون إياك أن تعطي له فرصة للحديث معك يا أدهم.

صمت أدهم ولم يقل لها أية شيء، وتركته والدته، ودلفت إلى غرفتها بينما حدث أدهم نفسه قائلاً: أنا بالفعل لست مطمئن لذلك الرجل، وأشعر أن الأمر أكبر من كونه أموالاً يدّعي أنه أقرضها لوالدي. حتماً هناك شيء آخر.

****